وصف الطبيعة في شعر الجواهريّ

المدرس الدكتور
فارس حسن محسن السلطانيّ
جامعة الكوفة - كلية الفقه

وصف الطبيعة في شعر الجواهري

المدرس الدكتور
فارس حسن محسن السلطاني
جامعة الكوفة - كلية الفقه

المقدمة :

لقد أخذ الجواهري من الشعر العربي مساحة كبيرة لم يوازه بها شاعر آخر في نظري ، وقد كنت مذ أحببت الشعر ميّالا إلى حفظ المزيد من قصائده ومعرفة أخبار نبوغه وتفرده ، وحين دعيت إلى كتابة بحث في أدب الجواهري ، وجدت أن هذا الموضوع لم يكتب به أحد من قبل ، وهو يشكل مادة رائعة في أدب الجواهري من حيث مقدرته على الوصف ، وهي من أجل صفات الشاعر ، وبها يتفاوت الشعراء قديما وحديثا .

وقد وجدت الجواهريّ بارعا في هذا الميدان كغيره مما ألفناه به ، فهو وصّاف حاذق ، ورسّام بارع ، لم يكن معنى من معاني وصف الطبيعة إلا وهو آخذ بناصيته، وقد تلمست أكثر أوصافه فوجدت أكثرها في وصف الطبيعة الصامتة، كما سيأتي بيانه، فوقفت من خلالها على الماء ، والربيع ، والرياض ، والبادية، والريف، فرتبت بحثي على هذا النحو .

فقد استوقفني الشاعر على أسلوبه البارع في وصف دجلة والفرات ، وسواها في لبنان في وادي العرائش، وكيف يتناول برقته المعهودة ربيع بلاده ، ولا يقف عنده بل يتعداه إلى سواه من جمال الربيع في بلد آخر، وحين يترجم روعة الطبيعة في رسم الرياض فهو قد تفنن في رصد كل ما يوحي بذلك، وله مع البادية والريف وقفات يحكي بها عن جمال أخذ عليه كل شيء .

وأرجو أن أكون قد وُفّقْت في الوقوف على ما يستحقه البحث من جهد ونتيجة و، والحمد لله أولا وآخرا.

التمهيد :

لقد كانت الطبيعة منذ ألفها الإنسان وتفاعل معها ، مورد خواطره ، وباعث شجونه ، ومنهل تصويره ، بها يطير ، وإليها يستريح ، ومنها ينسج تشبيهاته ، وبها يصف روائعه ، وعندها يودع بواعثه ، يضفي عليها الحياة ، ويمنحها حرية الكلام ، فيسألها وتجيب ، وتسأله ويجيبها بما استوقفها شاعرا متغزلا حزينا مفارقا

وهذه الحال لا تختص بأدب أمة دون أخرى بل هو جار في كل أدب من آداب الشعوب ، فالطبيعة حاضرة في آدابهم ،إذ إنها تمثل ركنا مهما من أركان الحوار النفسي للبواعث الشعورية ، والخواطر الإنسانية ، وميدانا فسيحا للتواصل مع دواعي الوجدان ، وهتاف الإحساس ، يقول الدكتور جودت الركابي إن شعر الطبيعة هو الشعر الذي يمثل الطبيعة وبعض ما اشتملت عليه في جو طبيعي يزيده جمالاً خيال الشاعر، وتتمثل فيه نفسه المرهفة وحبه لها واستغراقه بمفاتنها ...ويقرر الركابي أن (شعر الطبيعة) تعبير جديد في أدبنا جاءنا من الآداب الغربية... وكان من أهم مظاهر الحركة الإبداعية الرومانسية في أواخر القرن الثامن عشر.. والطبيعة كما يفهمها الرومانسيون صديقة وفيّة يحبونها لما تمنحه من جمال لحسّهم وهدوء لنفوسهم، فيستسلمون إليها ويشاطرونها المناجاة ويبوحون إليها بعواطفهم وآلامهم "[١] .

والشاعر العربي ليس بدعا من أدباء العالم في تعاطيه مع الطبيعة ، وتناغمه معها ، فمذ وصل إلينا شعر القدماء قبل الإسلام كانت الطبيعة

واضحة فيه، فمن وصف الطلل ، إلى وصف الناقة والفرس ، إلى الجبل والليل والرحلة وغير ذلك الكثير ، مما زخر به أدب ما قبل الإسلام .

وحين تطورت الحياة العربية ، وتواصلوا مع من جاورهم من الأمم ، شرعوا بوصف ما حولهم من حضارة جديدة تمثلت في وصف القصور و البرك والرياض والقيان وسوى ذلك مما يعد من تطور حضاري .

حتى إذا وصلنا إلى وصف الطبيعة في الشعر العباسي والأندلسي فإننا نقف أمام شعر غزير في مادته ، جديد في تصويره ، بارع في تناوله ، مما يشكل ملمحا جديدا في تطور الغرض الشعري ، عبر ثقافات يمر بها المجتمع ، تأخذ منه ويأخذ منها ، يتأثرها وتتأثر به ، ويكون من مجموعها نسيج أدبي فريد ، يحكي بمقاطعه المتنوعة رؤى الأديب وإحساسه ، ويترجم تعاطيه معها ، بما للأدب من نقل الواقع الفكري ، والأخلاقي ، والوجداني .

في معنى الوصف :

الوصف في اللغة هو:" وصَف الشيءَ له وعليه وصْفاً وصِفة ً: حَلاَّها [٢]"والوصف جزء من منطق الإنسان،لأنَّ النّفس محتاجة من أصل الفطرة الى ما يكشف لها من الموجودات ويكشف للموجودات منها، ولايكون ذلك الاّ بتمثيل الحقيقة وتأديتها إلى التصوّر في الطريق السمع والبصر والفؤاد " [٣] .وقد تعرض ابن رشيق في أثناء حديثه عن الوصف الذي قال عنه بأن أكثر الشعر يرجع إليه إلى تفاضل الناس في الوصف وإلى أهم موصوفاته أو موضوعاته على عهد المولدين فقال: " الأولى بنا في هذا الوقت صفات الخمر والقيان وما مشاكلها وما كان مناسبا لهما كالكؤوس والقنان والأباريق ،وباقات الزهر، إلى ما لابد منه من صفات الخدود والقدود و... ، ثم صفات الرياض والبرك والقصور وما شاكل المولدين ، فإن ارتفعت البضاعة ،

فصفات الجيوش وما يتصل بها من ذكر الخيل والسيوف والرماح والدروع والعصي والنبل ، إلى نحو ذلك من ذكر الطبول والبنود وليس يتسع بنا هذا الموضوع لاستقصاء ما في النفس من هذه الأوصاف " [٤].

ويشير أحمد الهاشمي في كتابه عن الوصف ،"الوصف،هو شرح حال الشيء وهيئته علي هو عليه في الواقع لإحضاره في ذهن السامع كأنّه يراه أو يشعر به". [٥]

ويقول أيضاً:"الوصف،عبارة من بيان الأمر باستيعاب أحواله وضروب نعوته الممثلة له وأصوله ثلاثة: الأول:أن يكون الوصف حقيقياً بالموصوف مفرزاً له عمّا سواه،الثاني: أن يكون ذا طلاوة ورونق. الثالث: أن لا يخرج فيه إلي حدود المبالغة والإسهاب ويكتفي بما كان مناسباً للحال وأنواعه كثيرة ولكنها ترجع الى قسمين وهما وصف الاشياء ووصف الأشخاص أمّا الأشياء الحرية بالوصف فهي كالأمكنة والحوادث ومناظر الطبيعة. أمّا وصف الأشخاص فيكون بوصف الصّورة أو بوصفهما معاً." [٦] هناك تعريف آخر عن أنواع الوصف ،"والوصف في كلّ شيء نوعان : خيالي وحسيّ . فالوصف الخيالي يعتمد التشبيه والاستعارة ويحاول أن يستحضر الموصوف من الذاكرة . أما الوصف الحسي فهو تصوير للموصوف .

وقد عُرف الوصف منذ عُرف الشعر العربي ، وفي رأي صاحب العمدة نرى أن "الشعر إلا أقله راجعٌ إلى باب الوصف"[٧] والشاعر الذي يُظهر مقدرة فنية في نقل صور موصوفه وتجليتها وتوضيحها للسَّامع يكون ذلك دليلاً على تفوّقه وبراعته ، ومدى دقّته ومهارته في فنّ الوصف "فأحسنُ الوصف ما نُعت الشيءُ حتى تكاد تُمثله عينًا للسامع" [٨] كما قال حنّا الفاخوري: " والوصف هوذكر أقسام الشي ء وشرح هيئته لإحضاره في ذهن السامع " [٩] فالوصف

في المعجم العربي هوالتجسيد و الابراز والإظهار وفي التراث النقدي العربي يقول قدامة بن جعفر في الوصف: "إنما هوذكر الشيء بما فيه من الأحوال والهيئات" [١٠].

مفهوم الطبيعة :

الطبيعة في اللغة : " الخليقة والسجية التي جبل عليها الإنسان "[١١] ، وطبع الله الخلق على الطبائع التي خلقها فأنشأها عليها ، وهي خلائقهم ، [١٢]، " وأصلها من طبعت الشيء ، أي: قررته على أمر ثبت عليه، كما يطبع الشيء كالدرهم والدينار فتلزمه أشكاله ، فلا يمكنه انصرافه عنها ولا انتقاله "[١٣].

وأمّا في الاصطلاح فـ (الطبيعة) لها عدة تعريفات فهي بحسب اعتقاد الإنسان الديني " مجموع الأشياء والكائنات الموجودة والقوة الكائنة في الكون . فهي ترادف الكون بصفة عامة ، أو الخليقة بالنسبة لمن يؤمن بإله خالق "[١٤] وهي التي أشار إليها أبو العتاهية بقوله:

فواعجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده جاحدُ
وفي كل شيء له آيةٌ ... تدل على أنه واحدُ[١٥]

وهي التي أشار إليها القرآن في مواطن متعددة من الذكر الحكيم ، كقوله تعالى ((سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم الحق))[١٦]

وهي بحسب تعريف (علم الجمال) : " كل ما يوجد في الكون خاضعا لنظامه ، ومميزا عما يضيفه إليه الإنسان بالصنع أو الفن وباستطاعتها إثارة حساسيته وعاطفته الجمالية "[١٧]

ويمكن تُقسّيم الطبيعة على: قريبة وبعيدة، باعتبار قُربها أو بُعدها من الإنسان. (فالقريبة): ما قربت من الإنسان في الأرض التي يعيش فيها، من جبالٍ، وأنهارٍ، وأشجارٍ، وينابيع، وعيون، وحيوان، وما إلى ذلك.

و(البعيدة): كلّ ما يقع عليه الحسّ من ظواهر وعناصر سماوية، من سماء، ونجوم، وكواكب،وشمس، وقمر، وسحاب، ورعد، وبرق وما شابهها، وتكون هذه الطبيعة مُقابلة للطبيعة الأرضية. [١٨]

وتقسَّم (الطبيعة القريبة) بالنظر إلى حركتها وسكونها وجمودها إلى: (طبيعة صامتة) و(طبيعة حيَّة).

(فالصامتة): هي تلك الجمادات المنتشرة على سطح الأرض، الخالية من الحياة التي يستشعرها الإنسان في الحيوان والطير والحشرات، من الأرض، والبحار، والينابيع، والجبال، والوديان، والمروج، والغابات، والسهول، وما شابهها([١٩]).

أما (الحيَّة) فهي: عناصر الطبيعة المشتملة على الحيوانات والطيور والحشرات بمختلف أشكالها وأصنافها[٢٠] . وأدخل بعضهم النباتات أيضاً بجميع أشكالها وأنواعها وصفاتها ضمن الطبيعة الحيّة[٢١]، أي: جعلها تدلُّ على جميع الكائنات الحية ماعدا الإنسان -عند بعضهم-.

أما (الطبيعة البعيدة) فتشتمل على نوع واحد فحسب، هو (الطبيعة الصامتة)، وهي تلك المُدركات الطبيعية بإحدى الحواس التي تولِّد الإحساس بالجمال للناظر إليها، فتُشعِر حركتها الكونية بالقدرة الخلاقة المبدعة التي تهزُّ كيان الإنسان النفسي وتوقظه وتنشطه وتزيده إيماناً بالخالق المبدع، عند تأمله فيها، كالشمس، والقمر، والنجوم...

وهناك تقسيم آخر للطبيعة، وهو انقسامها إلى (الطبيعة الحقيقية) و(الطبيعة الصناعية) بالنظر إلى اليد المُنشئة لها.

(فالحقيقية) هي: تلك العناصر الطبيعية التي لا يكون للإنسان يد في تكوينها، بل هي من خلق العزيز القدير. ونستطيع عدّها طبيعة حقيقية صامتة قريبة أو بعيدة، فتشتمل على جميع العناصر الأرضية والسماوية.

أما (الصناعية) فهي: تلك العناصر الطبيعية التي يكون الإنسان هو المنشئ لها، كالقرى، والقصور، والحصون، والسدود، والآبار، والرسوم،والأطلال، وما شابهها[٢٢].

تناول الجواهري لمفردات الطبيعة :

إن شاعرا مثل أبي فرات الجواهري (ت١٩٩٧م) ، كرع من الهموم التي أذاب فيها قلبه الذي يحكي عنه ، وصور فيها من المآسي ما يدعه لا ينظم إلا في بواعث حزن لا ينفك عنه مما صعق به من الكثير الذي ألهب حماسته وأطلق مشاعره ، ولكنه على الرغم من كل ذلك ، حين كانت تسنح له الفرصة من العمر وهو يجوب عوالم مختلفة من بلاده وما سواها في بلاد عربية أو أجنبية ، كان يهفو بإحساسه المرهف إلى مداعبة الطبيعة ومناغاتها ، هاتفا بكل ما يدور حوله من جمال خلاب ، وعشق صادق ، بأنه حاضر يريد معها حوارا خاصا.

وحين قرأت الديوان وجدت الشاعر قد انصرف إلى الطبيعة عبر الصور الآتية من الطبيعة الصامتة:

الماء :

نهر الفرات:

لقد شكل الماء في تناول الشاعر صورة فتانة لاسيما أنه ابن بلد يشقه رافدان عريقان ، له بينهما ولادة وذكريات ، وهما قد حملا معه آثار حب انطبع على قصائد الشاعر الذي آثر أن يسمي ابنه الأكبر بأحدهما وهو

(فرات) ، فها هو بين أحضانه يصور مغازلة الشمس لمياهه ، ببريد من أشعة ذهبية كسروية ، استأذنت حجّابه من النخيل الملتف ، بانيا له من أفيائه ما يأنس به سفح ، وتتنهد به أمواج ثائرة ، تحكي مشاعر أبنائه الفراتيين ،قال ابن قتيبة «أنه لم يستدع شارد الشعر بمثل الماء الجاري، والشرف العالي، و المكان الخضر الخالي[٢٣]، قال في قصيدة (يا فراتي):

إي وعيش مضى عليك بهيٍّ ... وشعاع من شطك الذهبيٍّ
التفاف النخيل حولك حتى ... لو تقصيت لم تجد غير فيٍّ
وانبساط السفح الذي زاحمته ... دفعات من موجك الثوريٍّ
وسنا الشمس حين مجت لعابا ... أرسلته من نورك الكسرويٍّ[٢٤]

ولا يفوت الجواهري الإشارة إلى مناغاة البدر للفرات بابتسامة يجلو بها ظلام ليل فيحيله إلى صورة وضيئة بهية :

وابتسام البدر المطلّ إذا ما ... بات يجلو الدجى بوجه مضيٍّ

ولا يفوته - كعادته – أن يمر بالمعاني السياسية التي لا تكاد تفارقه ممن كانت المطامع تدور بهم عليك :

دنست طهرك المطامع حتى ... لم تعد تنقع الغليل بريٍّ
الخنى أين عنه نفس أبيّ ... والحمى أين عنه طرف الحميٍّ
آه لولا خصب العراق وريف ... هو لولاه لم يكن بمريٍّ
ما استجاشت له المطامع والتفت عليه من المحل القصيٍّ[٢٥]

ويعود مرة أخرى إلى الفرات حين كان يفيض ، ولكنه حسن حتى في طغيانه على ساكنيه من أرض وشجر ، يقول في (الفرات الطاغي) وقد استعمل من

البنى الصوتية ما يشيربها إلى جلال الفرات ساعة فيضانه بألفاظ (طغى ، ضوعف ، راعت ، هيبته ، جبل) :

طغى فضوعف منه الحسن والخطر وفاض فالأرض والأشجار تنهمرُ فمرّ
وراعت الطائر الظمآن هيبته وهو جبان فوقه حذرُ
كأنما هو في آذيه جبلٌ على الضفاف مطل وهي تنحدرُ[٢٦]

وحين يعود راسما للفرات صورته التي اعتاد الناس النظر إليها ، يبعث من حنايا ضلوعه صورة أخرى يستوحي بها الفرات وكأنه قطعة من الشعر البديع ، قد طبع القمر صورته على صفحات مائه ، قد ازدحمت الخضرة بأشجارها التي أغنت ضفتيه بمنظر ، ملتفتا كما هو حاله إلى صورة سياسية واجتماعية ترويها أهل الفرات بين سلب وإيجاب ، يحاول ألا تفوته وقد مازج بين خلجاته شاعرا وقد سكبها على صفحة الفرات فهي (بديع شعر) ، وهنا جسّد الشاعر رؤية جديدة انساقت للقارئ عبر آلية جرس موسيقيّ رخيم ، في (خضرة أشجار وقد جاء بصيغة (طامي العباب) و(مغمورة) و (انغمر) ، للدلالة على ما مرّ من معنى فيضانه:

وصفحة من بديع الشعر منظره طامي العباب مطلا فوقه القمرُ
وقد بدت خضرة الأشجار لامعة مغمورة بسناه فهي تزدهرُ
ومن على ضفتيه انصاع منغمرا في الماء نصف ونصف فوقه شجر
باتت على خطر ناس بثورته وراح يؤنسنا في المنظر الخطرُ[٢٧]

دجلة:

ما إن يمر ذكر دجلة بين مسامع الأدباء حتى تفر النفوس حنينا إلى قصيدة الجواهري (يا دجلة الخير) التي نظمها في شتاء ١٩٦٢ م ، وكان يمر بأزمة نفسية

حادة ، إثر اضطراره إلى مغادرة العراق هو وعائلته ، والإقامة في مغتربه في جيكوسلوفاكيا(سابقا)[٢٨].

في هذه القصيدة يصف الشاعر دجلة على غير ما ألفناه في وصفه للفرات ، فهو من مكان بعيد على بغداد و دجلتها حيث موطن ذكرياته بأفراحها وأتراحها ، وهو ينظر إليها بقلبه ، في حنين يتمنى معه أن يكون من شراع قارب في دجلة كفنه ليوم موته، إذ لم يجد على كثرت وروده منابع الماء المختلفة على الرغم من صفائها؛ ما يبل أُوامه ، ويطفئ لهب عطشه ،يقول في (دجلة الخير):

حيّيت سفحك عن بعد فحييني ... يا دجلة الخير يا أم البساتينِ
حيّيت سفحك ظمآنًا ألوذ به ... لوذ الحمائم بين الماء والطينِ
يا دجلة الخبر يا نبعا أفارقه ... على الكراهة بين الحين والحينِ
إني وردت عيون الماء صافية ... نبعا فنبعا فما كادت لترويني
وأنت يا قاربا تلوي الريح به ... ليَّ النسائم أطراف الأفانينِ
وددت ذاك الشراع الرخص لو كفني ... منه يحاك غداة البين يطويني[٢٩]

لقد كان الشاعر حريصا على تصوير نزاع نفسي مفرط في حنين تمازج بدمو غربة ، وألم وضع سياسي قاهر ، فكان مطلع القصيدة جامعا لمعاني جمة حملها الشاعر معه ، فقد بدأها بـ (حيّيتُ) وكررها مع (دجلة الخير) و(أمّ البساتين) ،وطلب إليها أن تحييه وأشار من خلال كلمة (عن بعد) إلى معنى شفاف في مخاطبة الوجدان للوجدان ، حين ينأى المحب مغلوبا عن حبيبته :

ويمضي الشاعر في أنّاته متوجعا مكتويا بنار غربة وفراق أحبة ، وما يلقاه من عنت الساسة الذين استنزفوا خيرات البلاد ولم يكن من خير دجلة لأهلها

سوى الحرمان ، معيدا إلى الذاكرة أيام بغداد وليالي ألف ليلة وليلة ، حيث مجون أبي نؤاس ، في لياليه الحمر أيام كان لهارون وبغداد سلطة فرضت حضارة بغداد وتبغدُدَ أهلِها يوم كانت عاصمة الدنيا :

يـا دجلـة الخير يـا أطيـاف سـاحرة يـا خمـر خابيـة في ظـل عرجـونِ
يـا أم بغـداد في ظـرف وفي غـنج مشى التبغدد حتى في الدهاقينِ٣٠

ويظل الشاعر يوقد من ألفاظه، أنينا، ويبعث حشرجاته، حيث الواقع السياسي الذي لا يفارق غرض القصيدة الرئيس.

ومرة أخرى يلتقي شاعرنا الكبير مع دجلة ولكن هذه المرة على غير ما ألف من أبي فرات في حكاياته عن دجلة ، فقد أسماها (دجلة في الخريف)، يستجيب بها لطه حسين وقد طلب إليه أن يخصّ(الكاتب المصري) بقصائد فبعث إليه بها .

في هذه القصيدة يميط الشاعر اللثام عن روعة حالمة وهو يصور معالم دجلة حين يتضاعف منسوب مياهها وقد علت أمواجها فكان لها من رمال سواحلها ما بدا في صورة طفل يهدهد ماء دجلة الثائر :

بكـر الخريـف فـراح يوعـده أن سـوف يزبـده ويرعـدهُ
وبـدت مـن الأرمـاث عائمـة فيـه طلائـع مـا يجنـدهُ
وكـأن مـن زبـد الرمـال علـى أمواجـه طفـلا يهدهـدهُ٣١

ودجلة في الخريف لما كان من فيضانه فهو بما ظلت الجبال تهدده بعد صيف ازدهر رائعا ملئت الجبال حسدا له ، فكان منها يوم كانت جرداء خرساء ظلماء ودجلة زاهي الملاعب ، نير المواقد ، تراقصت أنغامه معانقة الموج الذي أراد أن يشارك دجلة طيب ذكرياتها :

وتحفـزت شـمٌ الجبـال لـــــــه بثـــلوجها كـــــــسفا تهـددهُ
ظلـت تعـد خطـاه ترقبـــــــه في الصـيف مزدهـرا وتحسـدهُ
جـرداء وهـو يضـج ملعبـــــه ظلمـاء وهـو يشـب موقـــدهُ
خرســاء والأنغــام ترقصـــــه وكأنهـا بـالموج ترفـــــدهُ[٣٢]

وحين يعاود الحديث عن دجلة ولكن هذه المرة في أحضان سامراء ، حين يبصر الشاعر من مناظر دجلة ما لا يقوى الشعر على تحليلها وهي في غاية الحسن والجمال ، من شفق أفاض شعاعه على تلك الشطآن والحقول ، للشمس مرة عند الأصيل ، وللبدر أخرى ، قد أرقصت كل شيء حولها من شواطئ ومساحب وربى وصفاء جوّ:

ولقـد رأيـتُ فُويـقَ دجلـةَ مَنظـراً الَشـعرُ لا يقـوى علـى تحليلـه
شَـفَقاً على الماءِ استفاضَ شُعاعُه ذَهَبـاً علـى شُـطآنه وحُقولـه
حتـى إذا حكَـم المغيـبُ بـدا لـه شـفقٌ يُحـيطُ البـدرَ حـين مُثولـه
فتحـالفَ الشـفقان ، هـذا فـائرٌ صُـعُداً وهـذا ذائـبٌ بنزولـه
ثُـمَّ اسـتوى فضّـيٌّ نُـورٍ عابـثٍ بالمـائجَيْنِ : مِياهـه ورمولـه
فاذا الشـواطئُ والمساحبُ والرُّبى والشـطُّ والـوادي وكـلُّ فُضـوله
قمـراءُ ، راقصـةُ الأشـعَّةِ ، جُلّلـت بخفـيِّ سِـرٍّ رائـعٍ مجهولـه
والجوُّ أفرطَ في الصفاءِ فلو جرى نَفَـسٌ عليـه لَبـانَ في مصـقوله[٣٣]

ولكنه يعود كما عهدناه مسائلا أطلال قصورها ، وماضي زمانها ، وكيف عتا أهلها فبدل الله النعمة ، ودلت الآثار على ذلك :

ولقـد شـجتني عَـبرةٌ رَقراقـةٌ حَيرانـةٌ في العـين عنـد دُخولـه
إنـي سـألتُ الـدهرَ عـن تخطيطـهِ عن سَطحه، عن عَرضه ، عن طُوله

فأجابني : هذي الخريبةُ صدرُه ... والبلقعُ الخالي مَجرٌّ ذيوله
وَسَلِ الرياحَ السافياتِ فانَّها ... أدرى بكلِّ فروعه وأصوله
وتعلَّمَنْ أنَّ الزمانَ إذا انتحى ... شُهُبَ السَّما كانت مداسَ خُيوله
مدَّت بنو العبَّاس كفَّ مُطاوِلٍ ... فمشى الزمانُ لهم بكفٍّ مَغوله
واجتاحَ صادقَ مُلكهِمْ لما طَغوا ... بدعيِّ مُلكٍ كاذبٍ مَنحوله
وكذا السياسةُ في التقاضي عندَه ... تسليمُ فاضلِه الى مفضوله[٣٤]

وليس جمال منظر الماء عند دجلة والفرات وحدهما استلهما شاعرنا الملهم ؛ فها هو يشرع حالما بـ (وادي العرائش) في لبنان ، مفتونا بجماله الأخّاذ، يسرج قصائده منوّرات في بهيّ ألفاظها ، حيث تذوب رقة وجمالا ، وتتيه غنجا ودلالا ، وكيف كان خيال الشاعر ملتفتا إلى كل ما فيه ، حتى جلاميده كانت مبعث تأمل لديه ، وهو يراقب الماء وقد تسلسل من الأعالي يريد قرارة الوادي الساحر كان استقبال المجاري لها بشغف وشوق حيث تستحم حصاه راسمة صورة فريدة لحركة الماء من أعاليه إلى أسفله :

صُنْعُ الطبيعةِ ، بالأشجارِ وارفةً ... لَهُ ، وبالنَّهرِ الرّقراقِ ، تحديدُ
خَصَّتْهُ باللُطفِ منها فهو مُنْبَعِثٌ ... ورُبَّ وادٍ جَفَتْهُ فهو مَوءودُ
طافَ الخيالُ على شَتَّى مظاهرِه ... واستوقَفَتْني بهِ حتَّى الجْلاميدُ
تَفَجَّرَ الحجرُ القاسي بهِ وبدا ... في وَجْنَةِ الصَّخرةِ الصَّماءِ توريدُ
تجري المياهُ أعاليهِ مُبعَثِرَةً ... لها هُنالكَ تصويبٌ وتصعيدُ
حتى إذا انحدَرَتْ تبغي قَرارتَهُ ... تَضيقُ ذرعاً بمجراها الأخاديدُ
استقبلَتْها المجاري يَسْتَحِمُّ بها ... زاهي الحصى فَلَهُ فيهنَّ تمهيدُ
فهُنَّ في السفحَ عَتْبٌ رقَّ جانبُهُ ... وهن يزفُرْنَ فوقَ الصخرِ تهديدُ

ما بينَ عَيْنٍ وأُخرى فاضَ رَيِّقُها أنْ تُلْفَتَ العينُ أو أنْ يُعطَفَ الجْيدُ
هذي " المسيحيَّةُ " الحسناءُ تمَّ على شرعِ " المسيحِ " لها بالماءِ تعميدُ
كأنَّها ، وعُيونُ الماءِ تَغْمُرُها مُستنْزَفُ الدَّم مِن عِرْقَيْهِ مفصودُ[٣٥]

الربيع :

لقد كان للربيع في روح الشاعر بعد رقيق ، ومنحى جذّاب ، سلكه في قصائد توزعت في أقطار مختلفة جمعتها صورة واحدة في خياله وهو يطوف مشاهدها الفاتنة بين حين وحين ، فهو في بلده العراق حين يصف منطقة (الغرّاف) يردُّ ما بين يديها من ضفوٍ لربيعها ، حين همى بها غيث غزير وكّاف ، وكأن الربيع قد قضى ديون صيف حين درّت به مدرّة الأحلاف ، حتى كان للحُبِّ الذي ضمنته ضلوع سمائها لأرضها ما لم يألفه الإنسان ، فكان للريف من حظوظ المواهب شرف النقابة كما يبدو للشاعر :

نسجَ الربيع لها الرداء الضافي وهَمَتْ بها كفُّ الحيا الوكّافِ
فضَّت بها عذراءَ كلِ سحابة خطرت فنبهت الهزار الغافي
قضّى الربيع بها ديونَ مصيفها من سَح كل مُدرة الأخلاف
الحب ما ضَمِنت ضُلوع سمائها للأرض لا ما يدعيه الجافي
قلب كما اتَّقدت لظىٍ، جوانحٌ رعْدٌ ، وجَفْنٌ دائم التَّذراف
ان الذي قَسم الحظوظَ مواهباً أعطى الربيع نِقابة الأرياف[٣٦]

وفي مقطوعة أخرى من ديوانه ، يراقب الشاعر فضل الربيع على الشجر وقد كساها من حلله الخضر وكأنه قد بعثها بعد موت ، قد اهتزت الورقة الصفراء التي أيقنت بالذبول ، حتى ردّ عليها الحيا حياتها مثلما ينمو رضيع على درّ أمه ، وقد لهج لسانها شاكرة ربها على عظيم النعمة ، وهو غير ما لابن آدم من شكر فصيح ، شكرت بشذاها الفوّاح ما نمّ به عن لسان حالها :

ألم تَرَيا حُسنَ الربيعَ وما ضَفَا على هذه الأشجارِ من حُلَلٍ خُضر
فلو أنَ مَيْتاً يُكتَفى عن نُشوره إذنْ لاكتفى مَيْتُ النبات عن النَشْر
تَرَى الوَرْقَةَ الصفراءَ تنمو على الحَيا رُوَيداً كما ينمو الرضيعُ على الدَرّ
خليليَّ ما شُكْرُ ابنِ آدم ربَّه بأفصحَ من شُكر الخمائلِ للقَطْر
سقاها الحَيا الغادي فنَمَّ على الثَنا شذاها كما نمَّ الحَباب على الخَمر[٣٧]

الرياض:

لقد برع أبو فرات في وصف الرياض وأجاد فيها ، وكان أول ما عرفت الجواهري في هذا الميدان ، يوم قرأت له (وادي العرائش) وما كان يسحره من الطبيعة في لبنان التي احتفظ الشاعر معها بذكريات طيبة كانت تمثل أروع ما وادع بها حبيب حبيبه ، فالساحة الغناء ، بأهازيجها، وأضوائها ، وغيدها ، وطيورها التي تتابعت الرقص والشدو مع الشادي الغرّيد ، ألفاظ حاك منها الشاعر بداية رحلة استكشاف لعالم من عوالم الجنة في الأرض :

يومٌ من العُمْرِ في واديكِ مَعدودُ مُستوحِشاتٌ به أيَّاميَ السُودُ
نزلتُ ساحتَكِ الغنَّاءَ فانبعثَتْ بالذكريات الشَّجيَّاتِ الأناشيد
واجتَزتُ رغمَ الليالي بابَ ساحرة مرَّ الشبابُ عليه وهو مسدود
قامَتْ قِيامتُه بالحُسْنِ وانتشرتْ فيه الأهازيجُ والأضواءُ والغيد
ما وحدَهُ غرَّدَ الشادي ليرْقِصَهُ الماءُ والشجرُ المهتزُّ غرِّيد
واد هو الجَنَّةُ المحسودُ داخلُها أو أنَّه من جِنان الخُلد محسودُ[٣٨]

وحين يستغرق شاعرنا العظيم في رائعته ، يستوقفه الحسن الذي أصله لهذا الوادي ، إذ كل حسن سواه تقليد له ، ويقسم أن حياته التي تناثرت هنا وهناك لو أمكنه أن يستردها لأنفقها بين حناياه ، فما عمرٌ بشبابه قد ذاب في

غير متعه إلا كان تبذيرا وتبديدا ، وهو يعيش في روعة حسن جمعها له جبلان عاطفان على ذلك الوادي ، وقد تنوعت متع الحياة التي زفت له ، وقد غمرتها أغاريد الطير ، وشاطرها شجر (الحوْر) وهو يمد ظلاله مبدلا هجير الشمس إلى ظل ممدود:

ثقي " زحيْلةُ " أنَّ الحسْنَ أجمَعَهُ ... في الكونِ عن حُسنكِ المطبوعِ تقليد
أنتِ الحياةُ وعمرٌ في سواكِ مضى ... فإنما هو تبذيرٌ وتبديدُ
أقسمتُ أُعطي شبابي حقَّ قيمته ... لو أنَّ ما فاتَ منه اليومَ مردود
وكيفَ بي ونصيبُ المرء مُرْتَهَنٌ ... به ، ومَغْنَمُهُ في العُمْرِ محدود
لم يأتِ للجَبَلَيْنِ العاطفَيْنِ على ... واديكِ أبهى وأنقى منهُ مولود
زَفَّتْ له مُتَعُ الدُّنيا بشائرَها ... واستقبلَتْهُ من الطيرِ الأغاريد
أوفى عليه يَقيه حَرَّ هاجرة ... سُرادقٌ من لطيفِ الظلِّ ممدود
بالحَوْرِ قامَ على الجنبينِ يحْرُسُهُ ... مُعَوَّذٌ من عُيونِ الناسِ مرصود
تناولَ الأفْقَ معتزّاً بقامته ... لا ينثني فَنَنٌ منه ولا عودُ[٣٩]

وحين يصف (الغرّاف) في (الروضة الغنّاء) ينبعث الشاعر من طبيعتها الحالمة التي رأى فيها كيف ألبسها الربيع حللا جعلت العشب يري ناظريه خمائل كللتها الورود ، وميّاس الأغصان المنتشية ما صار في عين شاعرنا يصف خالقها وكأنه شاعر قد نظم تلك الرياض نظم قصيد مقفى :

وكأنما لبست به أعطافها ... حُللا يُوشّيها السَّحاب ضوافي
وكأنما هَزَجُ الرعود إذا حَدّتْ ... ركب السحاب ، بشائر الألطاف
وكأنما العُشبُ النضير خمائلٌ ... ومن الورود لها طِراز وافي

وكـأن ميـاسَّ الغُصـون إذا انتشـى غِبَّ السحاب يُعبُّ صِرف سلاف
وكـأن مختلـف الـورود صـحائفٌ فيهـا تُخـط بـدائع الأوصـاف
وكـأن خـلاّق الطبيعـة شـاعرٌ نَظَـمَ الريـاض قصـائداً بقـوافي[٤٠]

القرية والبادية :

لقد كان لتجوال الشاعر في القرى العراقية وسواها ، أثرها في نقش رؤاها الممتعة في وجدان الشاعر ، ومخيلته ، فراح يبدع بفرشاته المعهودة ما ترك من جمال الطبيعة في نفسه ، ففي وصفه للقرية العراقية حين تبدو بعد ساعة مطر أعقبتها إطلالة شمس سكبت عليها رونقا بارعا من إطار مذهب أوشك على الرحيل فهو محدود بأجل معين ، أفرغ من أفعاله التي استعملها (شاع ، سال) ما يدلّ على انسيابية اللطف الذي خصه بطباق (يخلع ، أخيذ ، سليب ، محاسن ، عيوب ، خصيب ، جديب) قال في (القرية العراقية):

رونق شاع في الثرى وعلى الروضـة لطـف مـن السّـما مسـكوبُ
مـا أرقّ الأصـيل سـال بشـفاف شـعاع منـه الفـضاء الرحيـبُ
كـلّ شـيء تحـت السـماء بلـون شـفقيٍّ مـورّدٌ مخـضـوبُ
وكـأن الآفـاق تحتضـن الأرض بآصـالها إطـار ذهيـبُ
والـذي يخلـع الأصـيل علـى الأ رض بكفّ الدجى أخـيذ سليـبُ
ولقـد هزنـي مـسيل غديـرٍ مـن علـى جانبيـه روض عشيـبُ
يظهـر الشـيء ضـده وتُـجارى بسـواها مـحاسن وعـيوب
وكـذاك المرعـى الخصـيب يجلّيـه إلى النـاظرين مرعـى جديـبُ[٤١]

وكعادته يعود ليلاحظ كل جزء في عالم القرية العراقية ، حين يؤوب الفلاح بعد رحلة عناء مع الأرض ، في حياة ما تزال على بساطتها ، بدخانها وبيتها وهدوء حياتها ، مما يشكل منظرا يبعث الفراهة والأنس ، وقد جمع

بين الطبيعة الصامتة (دخان ، بيوت النار ، سرير ، قش) ، والمتحركة الحية (شويهات، ديك) وقد نسجت القافية البائية المضمومة لوحة توحي بالسهولة والسكينة والانسيابية ، حتى يخيّل إليك وكأنك في أحضان القرية حيث طلاقة الجوّ وصفاؤه ، واعتلال النسيم وروعة هبوبه ، وحين ينتهي يوم الفلاح ،فإنه ينتهي باستقبال السرير أو حزمة القش ، وتؤول تلك الحركة إلى سكون كالموت العميق لا يخرقها إلا أصوات ثاغية ، أو صياح ديكة .

ثم سدّ الأفقَ الدخانُ تعالى ... من بيوت للنار فيها شبوبُ
منظر يبعث الفراهة والأنس ... لقلب الفلاح حين يؤوبُ
يعرف اللقمة الهنيئة في ... البيت مجدّ طول النهار دءوبُ
واستقل السرير أو حزمة القشّ ... أريب نضو حريب تريبُ
سكنت كل نأمة واستقرّتْ ... واستفز الأسماع حتى الدبيبُ
واحتواهم كالموت نوم عميقٌ ... وتغشاهم سكونٌ رهيبُ [٤٢]

وحين ينزل ضيفا على (أم عوف) في ساحٍ عانق رأد الضحى وغازل نداها ورملها وطينها ، يثير الشاعر من خلال ألفاظ مونقة صورة البادية العراقية ، وخلو النفس إليها ، وكيف ألقت على أهلها من أخلاقها ،كرما ، وسماحة ، فهو يقابل في ألفاظه بين (الضحى والندى ، والرمل والطين ، والشمس والريح ، والسماء والنجم) يختزل بها لطف البادية وعنفوانها الذي يراه ماثلا في هذا الوادي ، يوم كان ملعب البطولات ، وحلبة المفاخرات :

حتى نزلنا بساحٍ منك محتضن ... رأد الضحى والندى والرمل والطينا
مفيّءٍ بالجواء الطّلق منصلتٍ ... للشمس تجدع منه الريح عرنينا
خلت السماء به تهوي لتلثمه ... والنجم يسمح من أعطافه لينا
فيه عطفنا لميدان الصبا رسنا ... كاد التصرّم يلويه ويلوينا

ويعود مرة أخرى إلى البادية ولكن هذه المرة في إيران ، ولكنه مشهد يفيض على الشاعر إبداعه المعهود ، إلا أن ثمة فارق بينهما هو الغربة التي لم تنل منه وهو في روعة حسن من بساط أخضر، وسمّار ونجوى ، ألفاظ سجل فيها الشاعر في ذاكرة ديوانه متعا تسلسلت فكانت له شغلا عن كل أنيس :

حَسُـــنَت باديـــةٌ فارهـــةٌ هـــي أَنســتْنيَ حُســنَ الحضَــرِ
كـــم علـــى أُمواهـــا تعريســـةٌ ومَقيـــلٌ تحـــت ظـــلِّ الشـــجرِ
ونهـــارٌ مشـــمِشٌ نَقْطَعُـــهُ بالأحاديـــثِ كليـــلٍ مقمـــرِ
راقـــت الوحـــدةُ لـــي في غـــربتي أنـــا لا أهـــوى ضـــجيج الزُمِـــر
شُـــغِل النـــاسُ بسُـــمّارِهُمُ وأنـــا وحـــدي هـــواكم سَـــمَري
انـــا والـــروضُ وأشـــباحُكُم نتنـــاجى تحـــتَ نُـــور القمـــرِ[٤٣]

الخاتمة:

لقد أثبت الجواهري كما عهد عنه ، براعة رائعة في وصف الطبيعة ، بكل دقائقها ، ولم يكن بدعا من غيره ممن أثروا الشعر العربي بوصف الطبيعة بدءا من شعر عصر ما قبل الإسلام وحتى اليوم، ومما يدهش في وصف الجواهري أنه كان لا يعييه وصف ، ولا يثنيه استعماله للفظ، بل يعد بحق من الوصّافين البارعين في هذا الميدان بما يمكن القول معه أنه استطاع أن يسجل اسمه بجانب كبار الشعراء في العصرين العباسي والأندلسي .

كما يمكن القول أن الجواهري كان يمزج روعة ما يشاهده من جمال الطبيعة ، وما تستوقفه من مناظر ، مع ما كان يحمله من همومه وأحزانه التي لم تكن تفارقه حتى في ساعات مرحه واستجمامه .

هوامش البحث

١ - الطبيعة في الشعر الأندلسي (جودت الركابي):٥٢

٢ - لسان العرب (ابن منظور) ، (وصف)
٣ - تاريخ آداب العرب (الرافعي) :١١٩
٤ - العمدة (ابن رشيق) :٢\٢٩٥-٢٩٦
٥ - جواهر الأدب (الهاشمي) : ٣٤٣
٦- نفسه : ٢٦٥
٧ - العمدة :٢\٢٩٥
٨ نفسه : ٢\٢٩٤
٩ تاريخ الأدب العربي (الفاخوري) : ٤١
١٠ - نقد الشعر (قدامة بن جعفر) : ١١٨-١١٩
١١ - الصحاح (الجوهري) (طبع):٣\١٢٥ ، و تاج العروس(الزبيدي) : ١١\٣١٧
١٢ - تاج العروس : ١١\٣١٧-٣٢٠
١٣ - الخصائص(ابن جني) ٢\١١٤
١٤ - معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب (مجدي كامل المهندس) : ١٣١
١٥ - ديوان أبي العتاهية :١٥٥
١٦ - فصلت : ٥٣
١٧ - معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب : ١٣٢
١٨ ظ :- العلاقات الدلالية بين ألفاظ الطبيعة في القرآن الكريم (رسالة ماجستير) آلان سمين زنكنه ، كلية التربي للبنات \جامعة بغداد
(١٩) الطبيعة في القرآن الكريم/٩، وينظر ألفاظ الطبيعة الحية في القرآن الكريم(دراسة لغوية دلالية)، بشرى غازي القيسي/٦، رسالة ماجستير، كلية الآداب-جامعة بغداد-١٩٩٩م.
(٢٠) الطبيعة في القرآن الكريم/٩.
(٢١) ألفاظ الطبيعة الحية في القرآن الكريم/٦.
٢٢- الطبيعة في القرآن الكريم/٩.
٢٣ الشعر والشعراء : ٣٨
٢٤ - ديوان الجواهري (دار الحرية للطباعة) ط ٢ : ١١١
٢٥ الديوان : ١١١-١١٢

٢٦ نفسه : ٣٣٨
٢٧ الديوان : ٣٣٩
٢٨ نفسه:٧٧٣
٢٩ الديوان : ٧٧٣
٣٠ نفسه:٧٧٤
٣١ نفسه: ٤٥٣
٣٢ الديوان: ٤٥٥
٣٣نفسه: ٣٠٧
٣٤ الديوان : ٣٠٨
٣٥ الديوان : ٣٣١
٣٦ نفسه: ٩٨
٣٧ الديوان: ١٢٢
٣٨ نفسه:٣٣
٣٩ الديوان : ٣٣٠-٣٣١
٤٠ الديوان : ٩٨
٤١ نفسه:٢٩٠
٤٢ الديوان:- ٢٩١
٤٣ الديوان- ١٦١

قائمة المصادر و المراجع

القرآن الكريم.

أولا: الكتب

١- تاريخ آداب العرب ، مصطفى صادق الرافعي . دار الكتاب العربي بيروت ط٢ ١٩٧٤م.

٢- تاريخ الأدب العربي ، حنا الفاخوري ط ١ ١٩٥١.

٣- ❖ تاج العروس من جواهر القاموس : محمد مرتضى الحسيني الزُّبيدي. (د.ت) .

٤- جواهر الأدب ، أحمد الهاشمي ط٣ ، مطبعة المقتطف والمقطم بمصر، ١٩٣٢م.
٥- الخصائص: أبو الفتح عثمان بن جنّي، تحقيق: محمد علي النجار. الطبعة الثانية. مطبعة دار الكتب المصرية-القاهرة، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.
٦- ديوان أبي العتاهية ، ترجمة وتحقيق انطوان قوال ، دار الفكر الغربي للطباعة والنشر ، ط١ ٢٠٠٣م.
٧- ديوان الجواهري (الأعمال الكاملة) ، دار الحرية للطباعة والنشر ط٢ ، بغداد ٢٠٠٨م .
٨- الشعر والشعراء ، إبن قتيبة الدينوري ط بيروت ١٩٦٤ .
٩- ❖ الصّحاح تاج اللغة وصحاح العربية: إسماعيل بن حمّاد الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطا. الطبعة الرابعة. دار العلم للملايين. بيروت-لبنان، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
١٠- العمدة في صناعة الشعر وآدابه ونقده ، إبن رشيق تح محمد محيي الدين عبد الحميد بيروت دار الجيل د. ت .
١١- في الأدب الأندلسي ، جودت الركابي ، ط٦ دار المعارف ٢٠٠٨م .
١٢- لسان العرب : ابن منظور جمال الدين محمد بن مُكرّم الأنصاري . طبعة مصوّرة عن طبعة بولاق معها تصويبات وفهارس متنوعة . المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر . الدار المصرية للتأليف والترجمة . مطابع كوستاتوماس وشركاؤه – القاهرة ، (د.ت).
١٣- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي كامل المهندس ، مكتبة لبنان بيروت ، ١٩٧٩م.
١٤- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ، تح كمال مصطفى مكتبة الخانجي ط٣ القاهرة ، ١٩٧٩م.

ثانيا : الرسائل الجامعية :

١- العلاقات الدلالية بين ألفاظ الطبيعة في القرآن الكريم (رسالة ماجستير) آلان سمين مجيد زنكنة ، كلية التربية للبنات \ جامعة بغداد ٢٠٠٢م.
٢- ألفاظ الطبيعة الحية في القرآن الكريم (دراسة لغوية دلالية): بشرى غازي علوان القيسي. رسالة ماجستير مطبوعة، كلية الآداب-جامعة بغداد، ١٩٩٩م.